



**انتصار الحراك الشعبي
في كولومبيا
خالد غنام**

**مركز
الانطلاقة
للدراسات**

انتصار الحراك الشعبي في كولومبيا

خالد غنام*

في بلاد الدم والرصاص والكوكابين حقق الشعب الكولومبي انتصاراً حقيقياً في تغيير شكل الحياة السياسية في البلاد، وفوز مرشحي الحراك الشعبي بأغلبية مقاعد مجلس الشعب (البرلمان) ورئاسة الجمهورية. وقد يكون هذا الحدث إنجازاً هاماً من الناحية السياسية خصوصاً في تمدد نفوذ اليسار في أمريكا اللاتينية وتحقيقه لبعض آمال الشعوب المضطهدة، وهذا بحاجة منا دعم وإسناد هذا الانتصار ومحاولة استثماره لتحقيق تغيير مماثل في الوطن العربي. وما سأحاول القيام به في هذا البحث هو دراسة الهيكلية التنظيمية للحراك الشعبي الكولومبي ومحاولة رسم الأسباب الدافعة لانتصارهم في كسب التأييد الشعبي الذي حقق انتصار تاريخي في انتخابات 20 حزيران 2022.

لقد تغيرت سياسات أمريكا اللاتينية بشكل كبير في العقد الماضي. في حين أن الانتخابات في السنوات العشر الماضية أطلقت المحافظين الذين غالباً ما يكونوا موالين للولايات المتحدة. إلى السلطة، انعكس هذا الاتجاه العام الماضي. إن كونك يسارياً في أمريكا اللاتينية لا يعني بطبيعته أنك معادٍ للولايات المتحدة، لكن اليساريين يميلون إلى التشكيك في الولايات المتحدة والالتزام بخصومها¹.

تقول "تارا ريكاردوس": البيت الأبيض الأميركي يتدخل في كل شيء بحياتنا مأكلاً وأعمالنا وهم من يسلحون العصابات وشركاتهم تسيطر على اقتصادنا وقرارتنا الحكومية والبرلمانية، لا نكره دولة بالعالم مثل أمريكا هي المساند الرئيسي لكل الفاسدين في البلاد، أنا لا أعرف شيئاً عن روسيا ولا الصين إلا أنني متأكدة أن أمريكا تساند الفساد في بلادي وفي كل العالم. قد أكون متطرفة في كُرهي لأمريكا وهذا بسبب الآلام التي تعاني منها بلادي، لا يمكنك الحصول على ما تريد دائماً، ولكن إذا حاولت في وقت ما، فستحصل على ما تحتاجه.

مضيفة: وما أحتاجه وطن أشعر به بالأمان فلا خوف ولا جوع ولا كراهية بين المواطنين بعدها سأحب أمريكا وكل شياطينها.

فقد حافظت الحكومات الكولومبية المتعاقبة على سياسة خارجية قريبة من الولايات المتحدة. تم التعبير عن هذا الموقف من خلال اتفاقيات التجارة الحرة، وكذلك في إجراءات كولومبيا في المنتديات الدولية ومعارضتها لحكومات أمريكا اللاتينية الأقرب إلى الطبقات العاملة الشعبية. حتى أن الحكومات هددت بمواجهة مسلحة مع فنزويلا، مما يقوض أي إمكانية للسلام في المنطقة.

الهبات الشعبية

في بداية الهبات الشعبية في خريف 2020، كانت مطالب الشارع الكولومبي تتلخص بـ "أوقفوا الموت"، نموت من العصابات المسلحة، نموت من الكوكابين، نموت من العمل بالشركات الأميركية.

إنها محاور سببت انقسام المجتمع الكولومبي لطوائف متناحرة تبيح قتل الآخر وتبيح الاستيلاء على ملكيته وتجريده من كل حقوقه، فالقوي يرسم شكل حياة الضعيف ويجبره على أسلوب حياة أشبه ما تكون حياة عبيد الرضى، ولا يمكن أن نستثني أي كولومبي من هذه الأزمة الاجتماعية بالأساس والتي تحولت إلى أزمة اقتصادية ثم تفاقمت بشكل شلل السياسي الذي أصاب البلاد منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي²، بل أن البعض يرجعه إلى عام 1964 ويجعله من الأسباب الحقيقية لتشكل جيش الحركة التحرر الوطني الكولومبي، حيث أن تاريخ الانتفاضات الشعبية لم يتوقف منذ ستين سنة.

إلا أن عام 2002 شكّل موجة الغضب الشعبي الأولى وكانت هبة شعبية ليست تابعة لأي تنظيم سياسي، وكان هدفها الحقيقي حل المشكلات الاقتصادية وتوفير الحد الأدنى من المواد الغذائية، إلا أن قيادات تلك الحقبة لم يكن عندهم خطة واضحة لتحقيق مطالبهم وكانوا عاجزين عن طرح بديل حقيقي للجماهير مؤيدة لهم، مما سبب بانتكاسة شعبية حقيقية أدت إلى تنامي الحلول السلبية الفردية فشهدت السنوات التالية موجات هجرة غير شرعية للبحث عن حياة كريمة خارج البلاد، وارتفاع معدل الانضمام للجماعات المسلحة وكذلك عصابات زراعة الكوكابين، وكان شباب الكولومبي استسلم للواقع وأنه قبل بأن يكون مجرد تابع لمن يتحكم بمصيره.

وأن مفهوم عبيد الرضى أخذ ينتشر بين الشباب وله تقبل في المجتمع، فلم يعد عيباً أن ينتمي الشاب لمنظمة إرهابية أو تتاجر بالمخدرات أو أنها تقوم بعمل مخالف للقانون، وكان شعار تلك المرحلة دعا نعيش نأكل ونشرب ولا نفكر.

الحراك الشعبي للمستقبل

في نفس تلك الفترة كانت أفكار الحراك الشعبي تتطور بشكل هادئ، وكان هناك نُخب سياسية تفكر بالمستقبل بطريقة مختلفة، إنها تبحث عن عوامل نهوض أمة محبطة، وإن هذه الأمة تساوي بين اليسار واليمين بالسياسة وأنهم لا يغيروا الواقع المعيشي في البلاد، وأن ما تقدمه المنظمات غير الحكومية مرتبط برضى الشركات الأميركية التي تستخدم المزارعين كمزارعين يعملون بأجور متدنية تصل لحدود العمل بالسخرة، وأن ما تقدمه القيادات الدينية والعرقية مرتبط بتسعير الحرب الطائفية وتفتيت المجتمع لفئات متوحشة تقتل بلا رحمة، وأن الحكومة تابعة للنخب البرجوازية في الأحزاب اليمينية وتعمل على تعزيز التناحر المجتمعي بين الطوائف العرقية والدينية، كما أنها تنسق وتدعم الحركات المسلحة وتتاجر معها بالأسلحة وتهريب المخدرات وكذلك تهريب العمال ضمن ما كان يسمى سياسة الأمن الديموقراطي³.

سياسة الحُب والقُدوة الحسنة

بالمقابل تم تجريد النقابات من أغلب صالحيتها وتزوير انتخاباتها بشكل جعلها تخرج من دائرة التأثير ولم تعد تشارك في صناعة القرار، كما أن الحزب الشيوعي لم يجدد فكره وأصبحت أفكاره مثالية لا يمكن تحقيقها ضمن الواقع السياسي المعقد، أمام جبروت الواقع المُرُّ تم طرح سياسة الحب اليسارية لحل جميع مشكلات كولومبية بخطة طويلة الأمد، تعتمد بشكل مثالي على خلق نخب سياسية قادرة على أن تكون القدوة الحسنة التي ستنفذ مشاريع صغيرة يكون هدفها المعلن حل مشكلة صغيرة في مدينة ما، إلا أنها بالحقيقة تكون نواة لتحقيق حل إحدى الأزمات الكبرى، دون الاقتراب من المعتقدات الشعبية غير القابلة للنقاش مثل أهمية القوة المسلحة لحماية الحياة وأهمية الدفاع عن العرق والدين.

نعم تقبلت سياسة الحُبِّ اليسارية هذه المعتقدات ومازالت لا ترفضها إلا أنها حققت إنجازات مهمة في تشكيل الوعي الاجتماعي الساعي لتغيير الواقع الاقتصادي⁴.

إن بناء كوادر القدوة الحسنة كان بحاجة لفترة زمنية طويلة حتى يحقق الحراك أهدافه، فهؤلاء الكوادر يعيشون بشكل اعتيادي كمواطنين إلا أنهم يقومون بعمل مشروع تنموي غير ربحي يكون بمثابة عمل إضافي لهم في المساء وأيام العطل، وكانت شروط هذه المشاريع تتلخص أن تخدم فئة اجتماعية دون أي تمييز وأن يكون تمويلها ذاتي غير مرتبط بأي جهات داخلية أو خارجية.

في بداية عمل كوادر القدوة الحسنة أحبهم الناس واعتبروهم مثل البعثات الرسولية الكنيسية إلا الوقت أثبت للناس أنهم يصنعون المستقبل ويخططون بعمق لتغيير الواقع السياسي من جذوره، استغرق هذا العمل أكثر من خمسة عشر سنة من العمل المتواصل في تغيير المعتقد الاجتماعي لمفاهيم بسيطة أساسها يعتمد أن لا تفكر مثل العصافير التي تبحث عن مأكلاها بشكل يومي، لا بد أن نفكر بالمستقبل ونفكر ماذا سيأكل أحفادنا، سنزرع الورد للشركات الأمريكية في الصباح، وفي المساء سنزرع القمح لأطفالنا، سنزرع الأرض الوعرة وحتى الصخر لأن كل الأرض الجيدة سرقتها الأغنياء ورجال أمريكا.

كانت قيادات الحراك الشعبي تقول نريد 10% من الشعب يعمل معنا بصدق وأمانة وهذا يكفي لتحقيق انتصار في الانتخابات القادمة، مهما كانت الانتخابات فاسدة إلا أن التحدي أن تقبل أن تتحدى الأسود في حب الأزهار، لكن أدت عودة الوسط الديمقراطي اليميني المتطرف إلى الرئاسة في عام 2018 إلى إبادة منهجية للمقاتلين السابقين والقادة الاجتماعيين المعارضين لرئاسة اليمين المتطرف. كانت قيادات الحراك الشعبي تقتل بدون أي سبب، بل أن بعضها قتل دون أن يشارك بالمظاهرات! فالحركات اليمينية أعلن أن نهاية حكمها اقتربت وأن هناك تغيير فعلي ليس بصناديق الاقتراع بل في أسلوب تفكير الكولومبيين. وهذا ما حدث بعد فترة قصيرة نسبياً وكانت الشرارة التي أشعلت الاحتجاجات هي الإصلاح الضريبي الذي اقترحته حكومة "دوكي". كان هدفها هو تقليل العجز الضريبي، وتجنيد الشركات الكبرى والنخب في البلاد. وأجبرت الضغوط الشعبية التي مارستها مظاهرات الشوارع الحكومة على سحب الإصلاح المقترح وقدم وزير المالية استقالته. مظاهرات ملونة تحرق ربطات العنق الوردية شعار الحزب الليبرالي، وكان وصف مظاهرات ملونة أكثر ما

يخيف الحكومة حيث أن الطوائف العرقية والدينية تهتف بصوت واحد ضد وزير المالية.

أول انتفاضة عام 2019، ومفهوم الأخطبوط

ثم تم تنظيم أول انتفاضة شعبية في نوفمبر 2019، قبل الأزمة الصحية العالمية الناتجة عن COVID-19. حشد الناس بأعداد كبيرة ضد السياسات الرجعية وعدم الامتثال لاتفاقيات السلام.

قوبل المتظاهرون بتجريم غير مسبوق ذهب إلى حد إعلان حظر التجول في العديد من المدن الكبرى، وهي ظاهرة لم نشهدها منذ السبعينيات.

كانت مطالب الحراك واضحة (إصلاح ضريبي يمنع التهرب الضريبي خصوصاً لأصحاب الاستثمارات الكبيرة، توفير الرعاية الصحية لكل المواطنين وتطويرها، التوزيع العادل للرواتب وحماية حقوق العمال والفلاحين، تطبيق قوانين حرية التعبير عن الرأي وترخيص المظاهرات وعدم استخدام الأسلحة النارية في فض التظاهرات، وضع خطة وطنية لمنع زراعة المخدرات وتجارة الأسلحة الغير مشروعة، المساواة والعدالة الاجتماعية بين جميع المواطنين وخصوصاً الأقليات الافريقية والسكان الأصليين، منع الاقتتال الداخلي وتجريم كل من يقتل مواطن بسبب انتماءه الديني أو العرقي أو السياسي).

ومن هنا نرى أن الحراك الشعبي كان يقوم بهبات شعبية ضد قرار محدد ولا يقدم مشروع متكامل للحكم، وأنه استمر بعمل الهبات الشعبية لمدة خمسة عشر سنة، وهذه الهبات لم تكن عامة بالمطبق فبعضها كان بالتحالف مع نقابة معينة أوحتى أهالي قرية نائية، كما أن كوادر القدوة الحسنة شكلوا ائتلافات السياسية وصلت لحدود العمل السياسي المنظم الذي له هيكلية تنظيمية ومهام ثورية، وهذه الائتلافات السياسية لن تتوحد في كيان واحد اسمه الحراك الشعبي بل ستبقى مفككة حتى يصعب تدميرها، وهذه الفكرة التنظيمية كانت صعبة التحقيق إلا أنها كانت تعتمد على الثقة العملية بين الكوادر، فالعمل الجماهيري يبني المصادقية الشعبية والأهلية الثورية، وهذا أسس لمفهوم جديد لتنظيم الشعبي بأنه مثل الأخطبوط له أذرع متعددة وهي الائتلافات السياسية أما جسد الأخطبوط فكانت المبادئ الثورية التي يؤمن بها الجميع كوادر وأعضاء وجماهير وأنصار إنها

العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين ومنع الاقتتال الداخلي ومحاربة الفاسدين.

وعندما وصلت الجماهير لمستوى النضوج الثوري بخ الأخطبوط ألوانه في انتفاضة لها أهداف وطنية عامة وأنها لن تعود لبيوتها إلا عندما تحقق الانتصار الكامل حتى لو قتل نصف الشعب الكولومبي، انتفاضة شعبية عنيفة بشكل ناعم، فهي لم تستخدم الأسلحة النارية لكنها لا تستلم للأجهزة الأمنية بسهولة، وهي سلمية فلا تدمر المنشآت العامة لكنها تسحق العملاء بل أنها شرّعت بقتل كل من تسبب بمقتل أحد الثوار.

المساواة والمعتقدات والاعلام

عدم المساواة⁵ المعضلة التي أخرجت انتصار الحراك الشعبي في كولومبيا، يقول "ريدريكو فونتيث": إن تغيير المعتقدات الاجتماعية أمر صعب، في بلد يسيطر عليه الأوروبيون البيض المسيحيين، وكانوا ينظرون إلى الأفارقة على أنهم عبدة لا يصلحون إلا للعمل مثل الدواب، وينظر للمعتقدات الدينية الوثنية للسكان الأصليين بأنها خرافات وأوهام شيطانية، وأنا كملونين أخذنا منهم البلادة وسوء الإدارة، كل شيء في كولومبيا عنصري حتى أن سمك عنصري، أن تغيير هذا المعتقد في مجتمعنا يعني أنك جنّت بدين جديد دين يؤمن بالمساواة بين الناس، وهذا لم يكن ممكناً قبل انتفاضة 2019.

بينما كان الإعلام اليساري في أمريكا اللاتينية والعالم يساند الحراك الشعبي حيث كان هناك موجات من الهبات الشعبية في كل أنحاء العالم، ولعل أبسط ما كتب عن الحراك الشعبي في كولومبيا: " تحول هذا الإضراب إلى انتفاضة عمالية وشعبية مع حواجز ومواجهات مع قوى الدولة القمعية وتحركات جماهيرية مستمرة حتى اليوم ولم تحدد نتائجها بعد.⁶ "

إلا أن الإعلام الغربي فكان يعتبر المتظاهرين عبارة عن متمردين همج، وإنهم لا يسعون لأي تسوية مع الحكومة الليبرالية، فعلى سبيل المثال نشرت بي بي سي: "أغلق المتظاهرون الطرق الرئيسية مما أدى إلى نقص الوقود والغذاء في بعض المناطق ووقعت اشتباكات عنيفة بين قوات الأمن والمتظاهرين"⁷.

الانتصار

في النهاية انتصر الحراك الشعبي ووصل للحكم بعد عمل تراكمي حقق هدفه، وقد يكون العالم ينتظر الحراك خطوات سريعة لتغيير شكل الحياة في كولومبيا، إلا أن القيادات الشعبية تقول: نحن لسنا عسكر حتى تكون قراراتنا بسرعة الطلقة، ولا نفكر بطريقة المافيا إن لم أقتل فسوف أقتل، نحن أناس مدنيين نؤمن بأن التغيير السياسي يحتاج لوقت، ولن يموت أحداً من أعضاء العصابات بقرارنا ولن نسرق أموال الأغنياء، لا نريد هذا العنف، نريد أن يمشي طفل كولومبي بطول البلاد وعرضها لا يخاف ولا يجوع، وغير هذا فلا يوجد مشاكل حقيقية، فلا نعادي لا أمريكا ولا غيرها ولسنا ضد أي شيء سوى أن يعيش الشعب الكولومبي مظلوم.

***خالد غنام: كاتب وباحث فلسطيني مقيم في
أستراليا، وعضو مركز الانطلاقة للدراسات. 2022م**

الهوامش:

- 1 - Hungry like the wolf: Territorial Conquest and Great Power Competition in the New World by Jeffrey Bristol <https://thestrategybridge.org/the-bridge/2022/6/10/hungry-like-the-wolf-territorial-conquest-and-great-power-competition-in-the-new-world>
- 2 - Colombia's popular uprisings by Lyda Fernanda Forero, Danilo Urrea. <https://www.tni.org/en/article/colombias-popular-uprisings>
- 3 - 'This is a revolution': the faces of Colombia's protests by Joe Parkin Daniels <https://www.theguardian.com/global-development/2021/jun/09/colombia-protesters-inequality-police>
- 4 - Popular uprisings in Colombia <https://www.cetim.ch/popular-uprisings-in-colombia/>
- 5 - Protests in Colombia and South Africa reveal link between inequality and popular uprisings by Misha Ketchell <https://theconversation.com/protests-in-colombia-and-south-africa-reveal-link-between-inequality-and-popular-uprisings-78214>
- 6 - Rebellion in Colombia by PARTIDO SOCIALISMO Y LIBERTAD (PSL) ARGENTINA <https://socialism.com/fs-article/rebellion-in-colombia/>
- 7 - <https://www.bbc.com/news/world-latin-america-56986821>

